الفصل الخامس

الجهـــــاد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الحج – الآيات ٣٩: ٤٠].

(١)

دخلت الهجرة عامها الثانى، واستقرت الحياة فى المدينة، وثبتت العقيدة الإيمانية فى نفوس المسلمين من الأنصار، بعدما نزع الله ما فى قلوبهم من غل، وألف بين قلوبهم، فأصبح الأوس والخزرج: إخوة متحابين، رحماء فيما بينهم، فهم عون لبعضهم فى الضراء قبل السراء، يقول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [سورة الأنفال – الآية ٦٣].

وكان هذا هو حال الأنصار مع المهاجرين أيضا، وهو ما جعل المدينة أمنا وأمانا وبركة، من فضل الله ورحمته.

وعلى رغم ذلك، لم يتوقف اليهود عن لغوهم، ومحاولة الوقيعة بينهم، والقول والمجادلة بالباطل فى دين الله، حسدا وكراهية، ولما يئسوا من فتنة المسلمين، أو الوقيعة بينهم؛ بعثوا رسلهم فى كل ناحية، لاستعداء قريش وغيرها من القبائل المحيطة بالمدينة، وتنزل تحذير رب العالمين لنبيه ﷺ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [سورة البقرة – الآية ١٠٩].

أثار هذا السلوك العدائى من اليهود، غضب كثير من المسلمين، وتحدثوا بذلك إلى رسول الله ﷺ، وتنزل قول الله تعالى: ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [سورة آل عمران – الآية ١٨٦].

ونبأهم نبى الله بما نبئ به، والتزم المسلمون بالصبر..

ولم يكن هذا هو مطلب الصبر الوحيد، فالمهاجرون قد اختصوا بالتزام ثان، وهو أن يعفوا ويصفحوا عن الذين انتهلوا أموالهم ودورهم بمكة ظلما واجتراء، فلقد كانوا يتذاكرون ذلك، ويتحدثون به داخل نفوسهم، ويتكلمون به فيما بينهم، ولما فاض بهم الحزن، أفاضوا بالحديث إلى الحبيب محمد ﷺ، فجاءت المطالبة الثانية بالصبر: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [سورة آل عمران – الآية ٢٠٠].

ثم بشرهم نبى الله ﷺ، بما تنزل عليه من الله تعالى بسورة الإنسان، من جزاء أعد للصابرين منهم: قال:

– إن الله تعالى، يعدكم بما هو أفضل مما أخذ منكم، فى جنات النعيم: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾.

أسعدهم رد رسول الله ﷺ، وهون من شعورهم بالظلم والعجز، وأفرغ على قلوبهم صبرا وسلاما؛ ولكن إلى حين، فلقد عاودتهم أحاديث المرارة ثانية، ونزل جبريل عليه السلام، بآيات تعطهم الحق فى قتال من ظلموهم: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الحج – الآيات ٣٩: ٤١].

وبدأ رسول الله ﷺ يعد المسلمين للجهاد فى سبيل الله، وفى مجلسه أفاض الحديث، فيما تنزل عليه من رب العالمين، من حث على القتال فى سبيل الله، ثم جاء الأمر بالتحريض على القتال، وبالتحول من القول إلى العمل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة الأنفال – الآية ٦٥].

ونزلت الآيات تترى حول فضل المقاتلين فى سبيل الله، وفضل المقاتل على من سواه: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ ﴾

وقد شحب لونه من خشية الله، وقال:

-- يا رسول الله، فكيف من لا يستطيع الجهاد؟.

وغشيت رسول الله ﷺ السكينة، ثم سرى عنه، فأعاد ترتيل الآية، بما تنزل عليه تبيانا من الله سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [سورة النساء – الآية ٩٥].

فما أرحمك يا إلهى بعبادك.

استمعت إلى عبدك فأفضت.

ولم ترض له ألما ولا خوفا.

وأبنت عن هذه الرحمة فى قولك تعاليت، حاسما لأى شك، مانعا لأى ظن: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [سورة الفتح – الآية ١٧].

كما بينت يا ربنا للمؤمنين عظمة قدر الشهداء، وما أعددته لهم من جنات النعيم، ونزل طيبة، وحياة لا تنقطع: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [سورة آل عمران – الآيات ١٦٩: ١٧١].

وهكذا أصبحت أعظم أمنيات المسلم، أن يكون له شرف الجهاد فى سبيل الله، وسعادة الاستشهاد والفوز بالجنة.

(٢)

وحتى لا يثير رسول الله ﷺ مخاوف اليهود، أو يروعهم، تخير متسعا من الأرض البور خارج المدينة، وبدأ المسلمون يتدربون فيه على فنون القتال.

وتغير إيلاف الناس، واعتادوا مجافاة نوم القيلولة، بخروجهم وقت الظهيرة فى مهام يكلفون بها، فبعث رسول الله ﷺ بالسرايا فى مهام استطلاعية، وقد تولى رسول الله ﷺ قيادة أول سرية خرجت

من المدينة واتجهت إلى الأبواء، حيث دفن بيديه الشريفتين، وهو صبى، أمه آمنة بنت وهب، فوادعه بنو ضمرة أصحاب المكان، وأعطوه عهدا بالا ينصروا عليه أحدا، وألا تكون أرضهم موقعا لعدو، أو مكانا تستطلع منه قوة المسلمين بالمدينة من قبل أعدائهم، وعادت السرية دون قتال، وإن كان المسلمون قد كسبوا حليفا جديدا.

ويتوالى إرسال السرايا للاستطلاع، والتدريب، ومتابعة تحركات قوافل قريش، التى تروح وتأتى بين مكة والشام عابرة حدود المدينة، ولتأمين هذه المداخل من أية محاولة للغزو.

ولقد خرجت هذه السرايا بقيادات مختلفة لاكتشاف قدرات القادة، ومنها ما عقد لعبيدة بن الحارث ابن عبد مناف، فلقد خرج مؤمرا على كتيبة قوامها ثمانون من المهاجرين، فالتقوا بجمع عظيم من قريش قدم مستطلعا قوة المسلمين بالمدينة بأسفل ثنية المرة، وقد كثر الله عدد المسلمين فى نظر المشركين فأصابهم الرعب، وارتدوا مدبرين، ولم يقاتلوا المسلمين على رغم تفوق المشركين عددا وعدة، حتى أنه كان يواجه المسلم الواحد عشرة من المشركين.

وعاد المسلمون إلى المدينة، وقد لجأ إليهم بضعة نفر من المسلمين ممن كانوا مع المشركين، وكانوا قد احصروا بمكة، وهم يكتمون إسلامهم، ولم يستطيعوا الهجرة: مهللين مكبرين، يحمدون الله على ما أعزهم به، بينما عاد المشركون إلى مكة، يقصون على أهلهم ما أراهم الله من القوة التى أصبح عليها من هاجروا.

.. وفى شهر شعبان من ذات السنة، اكرم الله نبيه محمدا ﷺ، واستجاب لكثرة دعائه، لتكون قبلته كقبلة الخليل إبراهيم عليه السلام، وأن تتحول الصلاة من بيت المقدس إلى الكعبة، فتنزل قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [سورة البقرة – الآية ١٤٤].

وتحول المسلمون، وجعلوا قبلتهم إلى مكة المكرمة، وتحدث اليهود بكل ما يسئ، وكثر لغطهم، ورد عليهم علام الغيوب، ووصفهم بالسفهاء فى قوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [سورة البقرة – الآية ١٤٢].

ثم عقد رسول الله ﷺ لحمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه، لواء سرية من ثلاثين رجلا من المهاجرين، مضت إلى العيص حيث طريق الساحل الذى تسلكه قوافل قريش إلى الشام، فواجه أبا جهل ابن هشام فى ثلاثمائة من المشركين، وألقى الله الرعب فى قلوب المشركين فنكصوا عن قتال المسلمين، وفروا فرارا، وازدادت خشية قريش، وعظم خوفها من قوة رسول الله ﷺ وصحبه.

كما خرج رسول الله ﷺ فى سريتين، الأولى إلى «بواط»، واستخلف عند خروجه السائب بن مظعون، تدريبا وتعليما لصحابته على الولاية؛ وكانت سريته الثانية إلى العشيرة، وهناك وادع بنى

ضمرة للمرة الثانية، وكتب رسول الله ﷺ كتابا، قال فيه:

– بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة، بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وأن لهم النصر على من رامهم، وأن النبى ﷺ إذا دعاهم لنصر أجابوه، عليهم بذلك عهد الله وعهد رسوله.

وإذا كانت كل تلك السرايا لم يتحقق فيها قتال بين المسلمين وأعدائهم من المشركين، فلقد علمتهم السمع والطاعة، وحطمت فيهم إيلافهم.

وفى تلك الأيام من شهر شعبان، فرض الصيام على المسلمين، بعد أن كان تطوعا، ليزيدهم تدريبا على مقاتلة النفس، والصبر على المكاره، فنزل قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [سورة البقرة – الآيات ١٨٣ : ١٨٥].

ومع ثبوت رؤية هلال رمضان ولليلتين خلتا منه، بلغ رسول الله ﷺ خبر قافلة ضخمة بقيادة أبى سفيان، كانت عائدة بتجارة لقريش من الشام فى ألف بعير، فبعث ﷺ بطلحة بن عبد الله التيمى وسعيد بن نفيل، ليتحسسا أخبارها.

٣

اليوم: السبت الثانى عشر.

الشهر: رمضان.

السنة: الثانية من الهجرة.

هذا مشرق بدر الكبرى، يوم الفرقان، وعلى رغم مرور ما يقرب من عشرة أيام، لم يعد الرسولان اللذان خرجا لاستطلاع قافلة أبى سفيان، وعزم رسول الله ﷺ على ألا ينتظر عودتهما، فجمع أصحابه، وقال لهم:

– هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها.

وظن المسلمون أن رسول الله ﷺ لا يقصد قتالا، وإنما يحفز المهاجرين ليستردوا أموالهم التى انتهبتها قريش، فاستجاب البعض للنداء، وتثاقل البعض الآخر من الذين هان عليهم ما خلفوا وراءهم

فى قريش، مفضلين ما وعدهم به الله من جزاء أوفى، وإن خرج مع رسول الله ﷺ الأنصار لأول مرة، فلقد كانت السرايا الأولى جميعها من المهاجرين، فكان تعداد من خرجوا ثلاثمائة وأربعة عشر مقاتلا، ولم يخرج معهم عثمان بن عفان، لاشتداد المرض على زوجه رقية بنت محمد بن عبد الله ﷺ، ولم يكن لرقية خادمة ترعاها.

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا لبابة الأنصارى أميرا لها، واستخلف عبد الله بن أم مكتوم على الصلاة بالمسلمين، ثم سار بجند الله، وليس معهم إلا ثلاثة أفراس، وسبعون بعيرا، فكان يتعاقب كل ثلاثة منهم على ركوب البعير الواحد، وكذلك كان يفعل رسول الله ﷺ: وعلى بن أبى طالب، ومرثد بن أبى مرثد، فقالا للحبيب ﷺ:

– نحن نمشى عنك يا رسول الله، وتظل أنت راكبا.

فقال لهما رسول الله ﷺ:

– ما أنتما بأقوى منى على المشى، ولا أنا بأغنى عنكما عن الأجر.

وتواصل مسير جيش المسلمين، حتى نزل فى بيوت السقيا خارج المدينة، فعسكر بها، وعندما أذن لصلاة المغرب، أمر نبى الله ﷺ المسلمين بالشرب من مائها وشرب معهم، ثم توضأ واستقبل القبلة وكبر وتوجه إلى السماء، وقال:

– اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك، دعاك لأهل مكة بالبركة، وأنا محمد عبدك ورسولك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم فى مدهم وصاعهم، مثلما باركت لأهل مكة مع البركة بركتين.

وبعد أن انتهى رسول الله ﷺ من صلاته، ثم إفطاره، لبس درعه، وتقلد سيفه، واستعرض المقاتلين، ودعا لهم قائلا:

– اللهم إنهم حفاة فاحملهم، عراة فاكسهم، جياع فأشبعهم، عالة فأغنهم من فضلك.

ولما رأى رسول الله ﷺ بين الجند بعض الضعفاء والغلمان، أمر بردهم إلى المدينة، ولكن «عمير بن أبى وقاص» بكى – وكان ابن ستة عشر عاما ـ فرق له قلب الحبيب ﷺ فأجازه.

كما رأى بين الجند «حبيب بن أساف»، فرفض مشاركته فى الحرب، لأنه كان على غير دين الإسلام، وقال:

– لا يصحبنا إلا من كان على ديننا.

فأعلن «حبيب» إسلامه، وضمه رسول الله ﷺ إلى الجند، وسلم اللواء إلى مصعب بن عمير بن هاشم، وكان لون اللواء أبيض، وكانت فى المقدمة رايتان لونهما أسود وهما أصغر قليلا من اللواء، إحداهما مع على بن أبى طالب رضى الله عنه، والثانية مع سعد بن معاذ رضى الله عنه، وعين على المشاة، وهم مؤخرة الجيش، قيس بن أبى صعصعة.

وصل جيش المسلمين إلى بئر الروحاء يوم الاثنين، ورد رسول الله اثنين من المرضى إلى المدينة، وصحبهم الحارث بن حاطب العمرى فلقد ولاه نبى الله ﷺ على بنى عمرو بن عوف، بعد أن بلغه

عنهم، ما جعل الشكوك تساوره منهم.

وبعد أن استراح الجند، عادوا إلى السير قاصدين بدرا.

٤

وعلم أبو سفيان بأمر خروج المسلمين لحصار قافلته، وكان ذا دهاء وحنكة، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى، وبعثه إلى مكة ليستثير همة رجالها ليهبوا إلى نجدته، بعد أن أجزل له العطاء وأمره أن يدخل على قريش فى حال ذرية حتى يستثير حماسهم.

وبعد ذلك سلك أبوسفيان طريقا مغايرا للطريق الذى اعتاد أن يسلكه، مبتعدا بالقافلة عن بدر، وأخذ يستحث العير ويسرع بها إلى طريق البحر، ليفلت من المسلمين.

وحين وصل جيش المسلمين إلى ذفران. بلغ رسول الله ﷺ أن عير قريش قد نجت من الحصار، وأن قريشا قد استنفرت، وأن القرشيين قد خرجوا إليهم فى نفر كبير؛ فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه، وقال:

-- إن القوم قد خرجوا إليكم من مكة على كل صعب وذلول مسرعين، فما تقولون: العير أحب إليكم من النفير؟.

فقال بعضهم:

– يا رسول الله امش بنا إلى العير، فإننا إنما خرجنا لها، هلا ذكرت لنا القتل حتى نتأهب.

وتغير وجه رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال وأحسن القول، ثم تبعه عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، فقال:

– يا رسول الله إنها قريش وعزها، والله ما ذلت منذ عزت، وسوف يقاتلونك بكل قوة، فتأهب لذلك أهبته، وأعد لذلك عدته.

ثم قام المقداد بن عمرو فقال:

– يا رسول الله، امض لأمر الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لنبيها: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون؛ ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون. والذى بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك حتى تبلغه.

فدعا رسول الله ﷺ للمقداد بخير، ثم اتجه إلى جموع المسلمين قائلا:

– أشيروا على أيها الناس.

فنهض سعد بن معاذ وقد أدرك أن رسول الله ﷺ إنما يريد كلمتهم هم: الأنصار، وقال:

– أنا أجيب عن الأنصار يا نبى الله، فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فو الذى

بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، أظعن حيث شئت، وصل من شئت، واقطع من شئت، وسالم من شئت، وعاد من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وما أخذت من أموالنا أحب إلينا مما تركت؛ والذى نفسى بيده ما سلكت هذا الطريق قط وما لى به من علم، وما نكره أن نلقى عدونا، وإنا لصبر فى الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا بعض ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

أشرق وجه رسول الله ﷺ بنور الرضا بمن نصروه، وقال:

– سيروا على بركة الله، وابشروا، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين أنها لكم؛ والله لكأنى الآن أنظر مصارع القوم.

٥

هب جهيم بن الصلت بن عبد المطلب من غفلته فزعا، فقال لقريش:

– إنى بين النائم واليقظان، إذ أنظر إلى رجل قد أقبل على فرس، ومعه بعير له، حتى وقف عليه، ثم قال: قتل عتبة وشيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، وأبو البحترى، وأبو الحكم بن هشام.

واستطرد يعدد أسماء رجالا من أشرافهم أعمل فيهم القتل، وعدد رجال آخرين تم أسرهم، ثم قال:

– ولقد رأيت الرجل ضرب لبة بعيره بسلاحه، فتفجر منها الدم فأرسلها فى العسكر تجرى، فما بقى خباء من أخبيتنا إلا أصابه منها دم.

أصابت قريش فزعة عظيمة مما سمعت، فلقد سبقت رؤية جهيم، رؤية أخرى لعاتكة بنت عبد المطلب، تحققت بوفود رسول أبى سفيان يستنفر القوم، وأراد أبو جهل أن يذهب الروع عن صحبه، فقال متهكما من رؤيا جهيم:

– هذا نبى آخر من بنى عبد المطلب، سيعلم غدا إن نحن التقينا من منا المقتول، نحن أو محمد وأصحابه.

لما اطمأن أبو سفيان على نجاة عيره من أيدى المسلمين، أرسل إلى من خرجوا من قريش، كتابا يقول فيه: لا حاجة إلى مجيئكم فأرجعوا.

فلما وصل كتابه، قال أبو جهل:

– والله لا نرجع حتى نحضر ماء بدر، فنقيم عليها ثلاثة أيام ننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف القيان، وتسمع بنا قبائل العرب وبسيرنا وجمعنا.

بينما أشار الأخنس بن شريق على قومه من بنى زهرة بالرجوع، قائلا:

– يا بنى زهرة، قد نجى الله أموالكم، وخلص لكم صاحبكم وما معه، ولم تبق لنا حاجة فى أن تخرجوا من غير منفعة، فاجعلوا الرأى لى، ولا تسمعوا قول أبى جهل.

وحاول أبو جهل أن يثنى الأخنس عن رأيه، لكن الأخنس ذكر له مقولة رسول الله ﷺ بمصارع

الأقوام، ثم سأله، قائلا:

– باللات والعزى أترى محمدا يكذب؟!.

قال أبو جهل:

– ما عهدنا عليه وهو بين أظهرنا أنه كذب قط، وكنا نسميه الأمين، ولكن إذا كانت فى بنى عبد المطلب السقاية والقيادة، ثم تكون فيهم النبوة، فأى شىء قد تبقى لنا ؟!!.

ولم يستجب له الأخنس ورجع ببنى زهرة، وتبعهم بنو عدى، فكان مجموع من عادوا إلى مكة وتركوا معسكر المشركين ثلاثمائة رجل.

٦

عسكر المسلمون بالقرب من بدر، وارتحل رسول الله ﷺ يصحبه أبو بكر فابتعدا عن المعسكر، يتحسسان الأخبار فالتقيا بشيخ من العرب، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه، فقال الشيخ:

– لا أخبركما حتى تخبرانى من أنتما؟!.

فقال رسول الله ﷺ:

– إذا أخبرتنا أخبرناك.

قال الشيخ:

– نعم، ذاك بذاك، بلغنى أن قريشا خرجوا من مكة يوم كذا، فإن صدقنى الذى أخبرنى، فهم الآن بقرب بدر، وبلغنى أن محمدا وصحبه قد خرج من يثرب يوم كذا، فإن صدقنى الذى أخبرنى، فهم الآن بالقرب من بدر، فممن أنتما؟.

قال رسول الله ﷺ:

– من ماء.

ثم انصرف ومعه أبو بكر عائدين، فظن الشيخ أنهما من ماء العراق.

وفى المساء، بعث رسول الله ﷺ عليا والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص إلى ماء بدر ليتقصوا الأخبار، فعثروا بغلامين يرتوون مع نفر من قريش، فأمسكوا بالغلامين، وعادوا بهما، وسألوهما ورسول الله ﷺ يصلى، من يكونان فقالا: إنهما غلامان لبنى الحجاج وبنى العاص، فقالوا:

– وماذا كنتما تعملان.

قالا:

– نحن سقاة قريش، بعثتنا لنستقى لهم.

فقالوا للغلامين:

– بل أنتم لأبى سفيان وتستقيان لعيره.

وأنكر الغلامان ذلك، فضرباهما، فلما أوجعهما الضرب، قالا:

– نحن لأبى سفيان.

وكان رسول الله ﷺ قد انتهى من صلاته، فدفعوا إليه الغلامين، فقال لهم:

– إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما؛ والله لقد صدقا، إنهما لقريش.

ثم قال رسول الله ﷺ للغلامين:

– أخبرانى عن قريش؟.

قالا:

– هم وراء هذا الكثيب بالعدوة القصوى.

فقال لهما:

– كم القوم؟.

قالا:

– كثير عددهم.

قال:

– وما عدتهم؟.

قالا:

– لا ندرى.

قال:

– كم ينحرون من الإبل كل يوم؟.

قالا:

– يوما تسعا، ويوما عشرا.

فنظر رسول الله ﷺ إلى أصحابه، وقال:

– القوم ما بين التسعمائة والألف.

ثم قال للغلامين:

– فمن فيهم من أشراف قريش؟.

وراح الغلامان يرددان أسماء أشراف قريش، ولما انتهيا، قام رسول الله ﷺ لأصحابه، وقال:

– هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها.

كان جيش المسلمين قد نزل فى العدوة الدنيا، وهى ذات تراب كثير ورمال ناعمة، فعطش المسلمون، واشتد بهم العطش، حتى هدهم هدا، قال بعضهم:

– أتزعمون أنكم أولياء الله، وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم عطاش، حتى إذا ضعفتم هجموا عليكم وقتلوكم.

وقدمت السحب تترى، وأعتمت السماء، ثم أنزل الله مطرا فجاجا، أطفأ الغبار ولبد الأرض، وشرب المسلمون وسقوا الركائب، واغتسلوا، فطابت أنفسهم، وهدأت وساوس الشيطان؛ وحمدوا الله كثيرا على ما رزقهم، ثم غلبهم النعاس فناموا لليلتهم نوما عميقا؛ بينما تحركت السحب إلى حيث أقام المشركون، فاشتد المطر وتواصل، وأبرقت السماء وأرعدت، فذعروا وأصابهم الخوف والفزع.

وأمر رسول الله ﷺ فنودى للصلاة، وبعد انتهائها، وقف فيهم خطيبا، فقال بعد أن حمد الله تعالى:

- فإننى أحثكم على ما حثكم الله عليه، وأنهاكم عما نهاكم عنه، فإن الله عظيم شأنه، يأمر بالحق، ويحب الصدق، ويعطى على الخير أهله على منازلهم عنده، به يذكرون، وبه يتفاضلون، وإنكم قد أصبحتم بمنزل الحق، لا يقبل الله فيه أحدا إلا ما ابتغى به وجهه، وإن الصبر فى مواطن البأس يفرج الله به الهم، وينجى به من الغم، وتدركون النجاة فى الآخرة، فيكم نبى الله يحذركم ويأمركم، فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شىء من أمركم يمقتكم عليه، فإن الله يقول: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة غافر - الآية ١٠]. انظروا الذى أمركم به من كتابه، وأراكم من آياته، وأعزكم به بعد ذله، فاستمسكوا به، يرض به ربكم عنكم، وابلوا ربكم فى هذه المواطن أمرا تستوجبوا الذى وعدكم به من رحمته ومغفرته، فإن وعده حق، وقوله صدق، وعقابه شديد، وإنما أنا وأنتم بالله الحى القيوم، إليه ألجأنا ظهورنا، وبه اعتصمنا، وعليه توكلنا، وإليه المصير. يغفر الله لى وللمسلمين.

وأمر رسول الله ﷺ بالجيش أن يتقدم إلى أقرب مكان من بئر بدر، فينزل بها، فجاءه الحباب بن المنذر بن الجموح، فقال:

- يا رسول الله، أهذا المنزل أنزلكه الله تعالى، ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟.

قال نبى الله ﷺ:

- بل هو الرأى والحرب والمكيدة.

قال الحباب:

- يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزل به، فإنى أعرف عذوبته وكثرته، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ونقذف فيه الآنية، ونغور ما سواه من الآبار، لئلا يأتوها من خلفنا فيشربوا، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربوا.

فقال رسول الله ﷺ:

- لقد أشرت بالرأى يا حباب.

ونهض بمن معه من جند الله، وعمل بما أشار حباب، وبات ليلته يصلى عند جذع شجرة قطع أعلاه.

فلما أصبح الصباح..

وانتهى المسلمون من الصلاة، وجلس سعد بن معاذ إلى رسول الله ﷺ، وقال له:

– يا نبى الله، ألا نبنى لك عريشا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلى عدونا، فإن أعزنا الله، وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله، ما نحن بأشد لك حبا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا، ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، ينصحونك ويجاهدون معك.

وتقبل رسول الله ﷺ ما قاله «سعد» قبولا حسنا، ودعا له؛ ونهض سعد إلى العمل، فتخير تلا يشرف على ساحة القتال، وبنى فوقه العريش من سعف النخيل.

٧

بعث رسول الله ﷺ بعمر بن الخطاب إلى قريش، وطلب منه أن يقول لهم:

– ارجعوا، فإنه إن يلى هذا الأمر منى غيركم، أحب إلى من أن تلوه منى، وإن أليه من غيركم، أحب إلى من أن يكون إليه منكم.

ولما سمع المشركون ما حمله إليهم عمر، قام من بينهم حكيم بن حزام، وقال:

– قد عرض محمد نصفا فاقبلوه، والله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من الإنصاف.

واغتاظ الشيطان من ميل الناس للمسالمة والسلام، ولم يعجبه الحال، فوسوس لأبى جهل حتى أغضبه، فانتفض يرد على حكيم منكرا، وقال:

– والله لا نرجع بعد أن أمكنا منهم.

وعاد عمر رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ، ليعلن رفض قريش للمسالمة.

ولم يكف الشيطان عن النفخ فى النار التى أوقدها فى نفوس المشركين، بل زين لهم أن يؤكدوا رغبتهم فى القتال، وإعراضهم عن المسالمة وهم أهل القوة والكثرة، والأقدر على الانتصار، وفح قائلا:

– لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم.

واستشاط المشركون غرورا، واندفعوا يسعون إلى حوض الماء الذى أحاط به المسلمون، حتى وردوا الحوض ليعبوا من مائه، وسارع المسلمون لمنعهم، ولكن نبى الله ﷺ، قال لهم:

– دعوهم، فلا يشرب منهم أحد إلا هلك.

ثم بعثت قريش أبا سلمة الجشمى، ليستطلع حال المسلمين ويقدر عددهم، فأخذ يصول ويجول بفرسه عن مبعدة، وبعد وقت ليس بالقليل، عاد يقول:

– هم ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون، ولكن أمهلونى حتى أنظر إذا كان لهم كمين أو مدد.

وانطلق بفرسه ثانية، وراح يجوس فى الوادى باحثا، ورجع إليهم يقول:

– والله ما رأيت جلدا ولا عددا ولا حلقة ولا كرعا، ولكنى رأيت قوما لا يريدون أن يعودوا إلى أهليهم، قوما مستميتين، ليست لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، زرق العيون كأنها الحصى تحت

الجحف، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم، حتى يقتل رجلا منكم، فقروا رأيكم.

فلما سمع حكيم بن حزام ما قيل، مشى فى الناس ليرجعوا عن حرب محمد، حتى أتى عتبة بن ربيعة، وقال له:

- يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك فى أمر تذكر فيه بخير حتى آخر الدهر؟.

قال عتبة:

- وما ذاك يا حكيم؟.

قال حكيم:

- ترجع بالناس، وتتحمل أنت دية عمرو الحضرمى.

وكان عمرو قد قتل فى إحدى السرايا التى أخرجها رسول الله ﷺ، قال عتبة:

- قد فعلت، وأنت شاهد على بذلك، ولكن عليك بأبى جهل فإنى لا أخشى أن يخالف بين الناس غيره.

وذهب حكيم ليبحث عن أبى جهل، بينما وقف عتبة يخطب فى الناس، قال:

- يا معشر قريش، لا تصنعوا شيئا لمحمد وأصحابه، والله لئن ننتصر عليه، لا يزال الرجل منكم ومنهم ينظر فى وجه الرجل الذى قتل أخاه، أو ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلا من عشيرته فيندم، وإن انتصروا عليكم كانت الطامة الكبرى، ورأيى أن ترجعوا وتخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذلك الذى أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم وحدكم لم تتعرضوا له بسوء.

ولما عثر «حكيم» بأبى جهل، عرض عليه العودة، وما رأى عتبة من افتداء لعمرو، فارتعب الشيطان مما عرض حكيم رعبا شديدا، وثار ومار، وقال أبو جهل بلسان الشيطان، وقد أصبح على نفس حاله من الثورة والغضب:

- جبن والله عتبة حين رأى محمدا وأصحابه، كلا، واللات والعزى، لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما قال عتبة ما قال إلا خوفا على ابنه الذى يقاتل فى صفوف المسلمين.

وبعث أبو جهل إلى عامر الحضرمى شقيق عمرو، فلما جاءه عامر، نفخ الشيطان فى النار، وقال له:

- هذا عتبة حليفك، يريد أن يرجع بالناس بعد أن رأى أخذ ثأرك علينا سهلا.

ونفث الشيطان، فانتفض عامر وقد أحوسه الغضب، ورمى بقوسه ودرعه، وحثى التراب على رأسه، وأخذ يجأر صارخا فى وجوه المشركين، يقول:

- وا عمراه، وا عمراه.

أثار ما فعل عامر حمية الجاهلية فى قريش، وتنادوا إلى القتال، وخفت صوت العقل والحكمة، وخرج من بينهم الأسود بن عبد الأسد المخزومى، وقد اشتدت حميته وتمكن منه الشيطان، وأقسم أنه سيرد ماء المسلمين أو يهلك دونه، واندفع مهووسا يجرى إلى معسكر المسلمين، شاهرا سيفه مناديا

للمبارزة، فتصدى له حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه بضربة من سيفه فبتر ساقه، ثم ضربه ضربة ثانية أهلكت المشرك.

وكبر المسلمون وهللوا للنصرة الأولى، وقال نبى الله ﷺ، وقد أرى الغيب:

– والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم..

ثم أخذ نبى الله ﷺ، يشير بيده إلى أماكن محددة من الأرض، ويقول:

– هذا مصرع عتبة، وهذا مصرع أمية، وهذا مصرع أبى جهل، وهذا مصرع فلان، وفلان...

وراح نبى الله ﷺ يعدد أسماء المشركين الذين سيقتلهم الله ببدر، ويحدد الأماكن التى سيهلك فيها كل واحد منهم، وكان ذلك ليلة الجمعة.

٨

ولما أشرق صباح يوم الجمعة السابع عشر من رمضان، أعلن رسول الله ﷺ إباحة الإفطار للصائمين، وبدأ بنفسه فأكل كسرة من الخبز وتبلع بالماء، وتبعه المسلمون، ثم أخذ يصف الجند ويناديهم بالاسم: ليأخذوا مواقعهم مستوين متلاصقين، وقد جعل الشمس خلفه، وبينما هو ينظر إلى الصفوف لمح سواد بن غزية، وقد تقدم الصف ببضع خطوات، فدفعه فى صدره برفق، وقال:

– استو يا سواد.

قال سواد متألما:

– أوجعتنى يا رسول الله.

فتألم رسول الله ﷺ من قولة سواد، وكشف عن صدره، وقال:

– رد ضربتى يا سواد.

واندفع سواد من الصف، إلى حيث وقف رسول الله ﷺ، واحتضنه، وأخذ يلصق وجهه بصدره ويقبله، وهو يبكى فى وجد، وسأله رسول الله ﷺ، قائلا:

– ما حملك على ما صنعت يا سواد؟!.

قال سواد، وقد غسل الدمع وجهه:

– يا رسول الله، ونحن فى هذا الموقف، توقعت أن أقتل، فأردت أن يكون آخر عهدى بالدنيا أن يمس جلدى جلدك، وأن أعتنقك.

فى مودة، مسح رسول الله ﷺ على رأس سواد، ودعا له بالخير.

ثم دفع ﷺ برايته إلى مصعب بن عمير، وأمره فوضعها حيث أشار وذهب رسول الله ﷺ إلى العريش، فاستقبل القبلة، ورفع ذراعيه، وراح يدعو الله ويستنصره، قائلا:

– اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم أتنى ما وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض.

فما زال يهتف بربه، حتى سقطت عباءته عن كتفيه، فلما دخل أبو بكر ورأى الحبيب على هذا

الحال من شدة الضراعة، رد العباءة على منكبيه، وأخذ بيده، وقال له مخففا:

– يا نبي الله كفاك تناشد ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك.

وخرج رسول الله ﷺ من العريش ليطلع على المشركين، فلما رأى كثرة عددهم وعتادهم، عاد إلى العريش، فصلى ركعتين، وعن يمينه أبو بكر رضى الله عنه، وتوسل إلى الله تعالى قائلا:

– اللهم لا تودع منى، اللهم لا تخذلنى، اللهم أنشدك ما وعدتنى.

وخرج عتبة بن ربيعة وعن يمينه أخوه شيبة وعن يساره ابنه الوليد، قاصدين معسكر المسلمين، منادين للمبارزة، فخرج إليهم فتية من الانصار، فلما اقتربوا منهم سألهم عتبة:

– من أنتم؟.

قالوا:

– رهط من الأنصار.

قال عتبة:

– أكفاء كرام، ليس لنا بكم حاجة، فارجعوا وأخرجوا إلينا أكفاء من قومنا وأبناء عمنا.

بلغ الأمر رسول الله ﷺ، فنزل من العريش، وطلب أن يرجع من تقدموا للمبارزة، ثم ذهب إلى حيث تجمع المسلمون، وقال:

– يا بنى هاشم، قوموا فقاتلوا بحقكم الذى بعث به نبيكم، إذ جاءوا بباطلهم ليطفئوا نور الله، قم: يا على، قم يا حمزة، قم يا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب.

فقاموا مسرعين، فلما دنوا من المشركين سألهم عتبة من يكونون، فعرفوا بأنفسهم، فقال عتبة:

– نعم، أكفاء كرام.

وتبارز ثلاثتهم، فسرعان ما قتل حمزة رضى الله عنه شيبة، فكبر المسلمون، ونزل الرعب والشؤم فى قلوب قريش وازدادوا فزعا، لما رأوا عليا يجندل الوليد، ثم كر حمزة وعلى على عتبة فقتلاه، بعد أن تمكن من عتيبة فجرحه، وارتفعت كلمة النصر:

– الله أكبر.

وحمل عبيدة جريحا إلى العريش، وأفرشه رسول الله ﷺ ساقه، فنظر طويلا فى وجه الحبيب، ثم قال متسائلا:

– يا رسول الله، إذا مت من جرحى هذا، ألست شهيدا؟.

قال رسول الله ﷺ:

– أشهد أنك شهيد.

٩

وتواجه الجمعان، فرفع رسول الله ﷺ وجهه وذراعيه إلى السماء، وقال:

– اللهم إنك أنزلت على الكتاب، وأمرتنى بالقتال، ووعدتنى إحدى الطائفتين، وأنت لا تخلف

الميعاد، اللهم هذه قريتى قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم أحنهم الغداة.

وتنزل قول العزيز القدير: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الأنفال - الآية ٩].

فكان المسلم لا يرى المشركين إلا قلة، وكذلك كان حال المشركين؛ فلما التحم الجيشان، وجدت قريشا المسلمين وقد تكاثر عددهم، بما لا قبل لهم به، فتنزل الرعب فى قلوبهم. ولما اشتد القتال، غادر رسول الله العريش، ونزل إلى المسلمين يشحذ هممهم، ويقول: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [سورة آل عمران - الآية ١٣٣].

ثم يستطرد ﷺ قائلا:

- والذى نفس محمد بيده، لا يقاتل اليوم رجل، فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة.

قال له عمير بن الحمام، وبيده تمرات يأكلهن:

- يا رسول الله، أما بينى وبين أن أدخل الجنة، إلا أن يقتلنى هؤلاء.

قال الصادق الصدوق ﷺ:

- نعم.

فرمى عمير بالتمرات من يده، وقال:

- والله لئن حييت حتى آكلهن، إنها لحياة طويلة.

واستل سيفه، ورمى بنفسه فى خضم المعركة يقاتل فى سبيل الله.

وتناول رسول الله ﷺ حفنة من الحصى، ورمى بها فى وجوه قريش، وقال:

- شاهت الوجوه، اللهم أرعب قلوبهم، وزلزل أقدامهم.

ثم نادى المسلمين، قائلا:

- شدوا.

واقترب المسلمون بعضهم من بعض، وتلاحموا، حتى أصبحوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، إعمالا لأمر ربهم سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [سورة الصف - الآية ٤].

ثم اندفعوا إلى لقاء المشركين؛ واتجه رسول الله ﷺ إلى العريش، يتبعه أبو بكر، وأخذ ﷺ يدعو ربه:

- اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم فلن تعبد فى الأرض، اللهم أنشدك وعدك وعهدك.

وأبو بكر رضى الله عنه يقول واثقا:

– يا نبى الله، إن الله منجز ما وعدك، والله لينصرنك الله، وليبيضن وجهك.

وارتعد رسول الله ﷺ، ثم أفاق فقال مستبشرا لأبى بكر:

– أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثناياه النقع.

وهبت ريح خفيفة، ثم اشتدت الريح، ثم زادت اشتدادا وقوة، ويقال: إنها كانت حركة الملائكة تتنزل بأمر ربها، لتحارب مع المسلمين، وتثبت فؤادهم: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الأنفال – الآية ١٢].

مع غروب الشمس انهزم المشركون، وقتل منهم سبعون كان منهم كل من عدد رسول الله ﷺ مصرعهم، كما أسر سبعون، ونكص الشيطان على عقبيه، وفر قائلا للمشركين:

– إنى برىء منكم.

ولما جمعت جيف من هلك من المشركين، تم دفنها فى القليب، وقد وقف رسول الله ﷺ عليهم، ونادى قائلا:

– يا أهل القليب، يا هيبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أمية بن خلف، يا أبا جهل ابن هشام، يا..

وأخذ رسول الله ﷺ يعددهم اسما اسما، ثم قال:

– بئس العشيرة كنتم لنبيكم، كذبتمونى وصدقنى الناس، وأخرجتمونى وأوانى الناس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟..

فقال عمر بن الخطاب:

– يا رسول الله، كيف تكلم أجسادا أجيفوا ولا أرواح فيها؟!.

قال رسول الله ﷺ:

– ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئا.

وراجع المسلمون قتلاهم فكانوا ثلاثة عشر شهيدا، من بينهم الصبى: عمير بن أبى وقاص، وعمير ابن الحمام.

ومكث رسول الله ﷺ ببدر ثلاث ليال، جمعت فيها الغنائم، وكانت مائة وخمسين بعيرا، وعشرة أفراس، ومتاعا وسلاحا وثيابا..

وقد اختلف المسلمون فى اقتسام الغنائم، فقال الذين قاتلوا العدو:

– والله لولانا ما أصبتم الفىء.

وقال الذين سعوا فى جمعه:

– هو لنا فلقد عنتنا فى جمعه.

وقال الذين قاموا على حراسة رسول الله ﷺ:

– والله ما أنتم بأحق به منا.

فنزل قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [سورة الأنفال – الآية ١].

ولما سمع عبادة بن الصامت ما تنزل من قول الله، قال آسفا:

– نزلت سورة الأنفال فينا معشر أهل بدر حين اختلفنا فى النفل وساءت أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسوله ﷺ.

عاد رسول الله ﷺ بجيشه إلى المدينة، وقد صحب معه الأسرى والغنائم، ولما مالت الشمس للغروب تخطى مضيق الصفراء، ونزل بكثيب حيث مات عبيدة بن الحارث متأثرا بجراحه، فصلى عليه ودفن هناك، وفى نفس المكان، تنزل قول الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الأنفال – الآية ٤١].

فأمر رسول الله ﷺ بالغنائم لتقسم، ثم أمر أن تقسم أربعة الأخماس على أهل بدر، فقال سعد ابن معاذ:

– يا رسول الله، أتعطى فارس القوم الذى يحميهم مثل ما تعطى الضعيف؟!.

قال نبى الله ﷺ:

– وهل تنصرون إلا بضعفائكم؟.

وانطلق البشير إلى المدينة بخبر النصر، فوجد أهلها قائمين على دفن رقية بنت رسول الله رضى الله عنها، فلما انتهوا، خرجوا لاستقبال الحبيب ﷺ، بمثل الحفاوة والفرحة التى استقبلوه بها يوم وفد عليهم لأول مرة.

(١٠)

حمل أول من عاد من أرض القتال، خبر الهزيمة إلى مكة، قبل أن تصل فلول جندهم، فأصاب أهلها حزن شديد، وإن لم يصدقوه لهول ما قال، ثم بدأت شراذمهم تقبل، فتدافعوا يتحسسون فلذات أكبادهم بين من فروا، فلم يجدوهم، وسمعوا أبا سفيان بن المغيرة يقول لأبى لهب وهو كبيرهم:

– والله ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، ومع ذلك لا ألوم من هزموا، فلقد لقينا رجالا بيضا على خيل بلق، لا يقف أمامهم شىء ولا يبقون على شىء.

وهنا انطلق الحزن يجأر بين الشعب والأحياء، ومات أبو لهب بعدها بسبعة أيام منبوذا فقد دهمه

الطاعون كما دهم من قبله أبرهة الأشرم، فتباعد عنه بنوه ثم دفعوا جيفته بالعصى إلى أن أسقطوه فى حفرة، ثم أهالوا عليه التراب؛ وظل النواح والبكاء على قتلى قريش قائما لا ينقطع لمدة شهر.

ولما تدبر العقلاء من قريش أمرهم، قالوا:

- لنكف عن النواح، حتى لا نشمت فينا محمدا.

ثم أدركوا أن العير التى عاد بها أبو سفيان مازالت تحمل تجارتهم، فتعاهدوا على أن يكون عائد ربحها جميعه من أجل قتال محمد وصحبه ثأرا لقتلاهم.

وبدأ القرشيون بفداء الأسرى، وكان من بينهم زوج زينب بنت رسول الله ﷺ أبو العاص بن الربيع، ولم يكن صاحب مال، فأرسلت زينب رضى الله عنها بقلادة كانت قد أهدتها لها أمها السيدة خديجة رضى الله عنها عند زواجها، فرق لها قلب رسول الله ﷺ وطلب من أصحابه أن يعتق «أبو العاص» وترد القلادة لصاحبتها فوافقوه، على أن يرد زينب إلى أبيها، فهى محصورة فى مكة، بعد أن فرق بينهما عدم دخول زوجها فى دين الله.

وانتهى صيام رمضان بثبوت رؤية الهلال لمن خرجوا يستطلعونه، وعند شروق شمس غرة شهر شوال، أذن بلال للصلاة، وأم رسول الله ﷺ جموع المسلمين لأول مرة؛ ليصلوا صلاة عيد الفطر، ولما انتهوا، خطب فيهم، وبين لهم مشروعية زكاة الفطر، وحضهم على إخراجها.

وبعد أيام، دخل رسول الله ﷺ بعائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وكان قد بنى لها دارا، بجانب داره الأولى، لصق المسجد.

أما «أبو العاص» فعندما عاد إلى داره، جهز زينب رضى الله عنها ثم أرسلها إلى المدينة، وفاء لما عاهد عليه رسول الله ﷺ، وفى غفلة من قريش التى أصبح همها الذى يهم أهلها بالليل والنهار، وشغلها الشاغل: تأليب قبائل العرب، على محمد ﷺ وقومه، وخرجت رسلهم إلى كل وجهة، يقودهم أحكم حكمائهم، وزعماء سفرتهم: فتوجهوا إلى تهامة وكنانة والأحابيش وغيرها من القبائل، يستنصرونهم ويستنفرونهم، ويخوفونهم من زيادة نفوذ محمد فى المدينة وما حولها، ويتمثلون بما هو واقع، فلقد أصبح محمد يمسك بزمام تجارتهم ويتحكم فيها، بتحكمه فى طرقها إلى اليمن والشام، كما أن هناك خطورة من انتشار دين محمد وفكره، لأن فيه اندحارا كاملا لنفوذ السادة، ومساواة بين الجميع، وضياعا لجبروت الأنساب والأحساب، المتسلط على رقاب العباد من الضعفاء، فرب محمد قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الحجرات - الآية ١٣].

ومحمد ﷺ هو من قال:

- لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى.

فماذا ينتظرهم جميعا بعد هذا إلا الأفول والضياع؟!!.